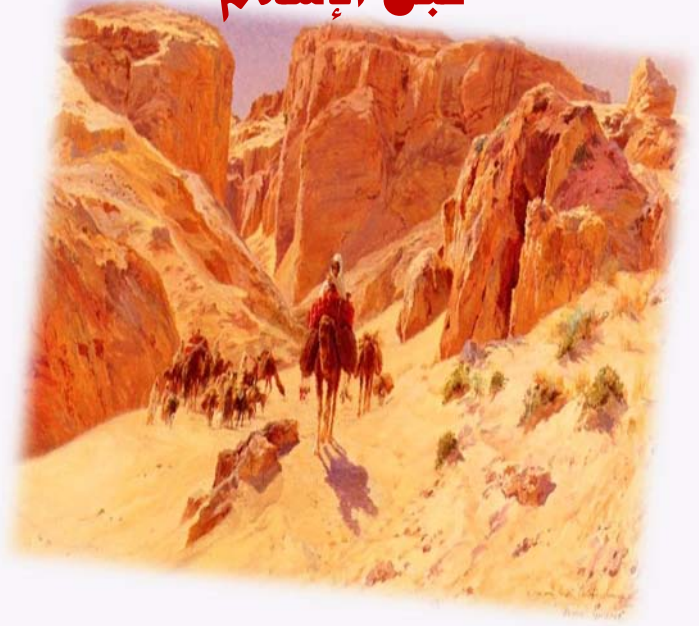


صلات العرب التجارية

قبل الإسلام



مما لاشك فيه أنه كان للعرب في الجاهلية صلات بالأُمم المعاصرة لهم ، حيث كانوا على اتصال بهم من الناحية الحربية والتجارية ، إلا أن صلات العرب التجارية كانت من أوسع الطرق إلى هذه الصلات ، ولعل ذلك يؤكد على أن العرب في أي مرحلة من مراحل التاريخ لم يكونوا في عزلة عن عالمهم المحيط بهم ، بل كانوا فاعلين مشاركين مع الأمم التي عاصرتها.

وعليه تحاول هذه السطور المتواضعة أن تتناول بالدرس والتحليل صلات العرب التجارية قبل الإسلام ، فتكلمت عن بلاد اليمن في عالم التجارة ، وعن سبأ وعلاقاتها التجارية ، وأسطولها البحري ، وطرق نقل المتاجر ، ثم تحدثت عن حمير في الميدان التجاري ، مع توضيح أثر التجارة بوجه عام في رخاء بلاد اليمن.

بعد ذلك دلفت هذه السطور إلى قريش ودورها ولأهميتها في عالم التجارة ، ومعاهداتها التجارية ، وصلات العرب التجارية مع الدول المجاورة لهم ، وطرق نقل البضائع والسلع ، وقوافل الفرس التجارية ، ثم أثر التجارة في حياة العرب المكيين بوجه عام ، ومكانة مكة التجارية والتي استحققت أن يطلق عليها (بندقية الشرق).

وقد دعمنا سطورنا بالأسانيد والمراجع التي تناولت هذا الجانب من تاريخنا العربي الاقتصادي (التجاري) ، وبذلك نكون قد قمنا بالرد على هؤلاء الذين يزعمون أن العرب كانوا أمة منعزلة عن الآخرين ، أو بمعنى آخر غير مشاركين مع الآخرين في أنشطة الحياة المختلفة ومنها الأنشطة التجارية والاقتصادية.

اليوم في عالم التجارة:

أولاً : سبأ وعلاقاتها التجارية

ورثت سبأ من معين مركزها التجاري ، وتزعمت الحركة التجارية في القرن الثاني قبل الميلاد ، وكانت هي السوق الكبرى للمتاجر ، لذلك اعتبر السبئيون هم حلقة الاتصال بين شبه الجزيرة الهندية والحبشة وشرقي أفريقية ، وبين شمالي آسيا وشمالي أفريقيا ، وكانت عمان الأقليم الشرقي لهذه المتاجر.

وقد استعانوا بالفنيين زمناً طويلاً في بيع سلعهم ، إذ كانت لغتهم متقاربة ، وكان الفنيقيون هم حلقة الوصل أو الاتصال بين السبئيين وجنوبي أوروبا ، وطالما تنافس العرب والبابليون العراقيون في التجارة مع الهند [جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ١١٩ . ١٢٠] واستطاع السبئيون أن يسيطروا نفوذهم على بلاد اليمن كلها ، وحضر موت وما جاورها ، ومكن لهم هذا النفوذ من السيطرة على منافذ التجارة الهندية القادمة إلى المواني ، وعلى المراكز المشرقة على طرق القوافل.

وكانت سبأ تمتلك أسطولاً بحرياً يبحر عباب البحر الأحمر ناقلاً البخور إلى مصر الفرعونية لحاجة المعابد إليه ، كما كانت لها قوافل تخترق الصحراء إلى الشام وفلسطين والعراق لنقل السلع التجارية.

[حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسي ، ١ / ٢٤]

كما كانت المتاجر تنتقل أول الأمر في البر إلى البحر الأحمر ، ثم تحملها السفن إلى مصر والشام ، وبعد حين قضت صعوبة الإبحار في البحر الأحمر ، أن تنقل البضائع براً من شبوة (اسم بلد بين مأرب وحضرموت ، قريبة من لحج) [ابن منظور ، لسان العرب. وكذلك الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، مادة : شبا]

يسري عبد الفني عبد الله

باحث ومحاضر في الدراسات العربية

والإسلامية والتاريخية

القاهرة — جمهورية مصر العربية

Ayusri_a@hotmail.com

الاستشهاد المرجعي بالهقال:

يسري عبد الغني ، النوازل الفقهية والعلوم الإنسانية: علم التاريخ مثلاً- دورية كان التاريخية- العدد السادس ؛ ديسمبر ٢٠٠٩ . ص ٨٨ — ٩٢.

(www.historicalkan.co.nr)



ثانياً : تغير طريق التجارة

فلما تغير طريق التجارة حوالي القرن الأول بعد الميلاد ، ضعفت سبأ وتهمد سدها العظيم ، وتفرق سكانها فيما جاورها من البلاد. والراجح أن تحويل تجارة الهند إلى طريق البحر الأحمر كان في أيام البطالسة ، لأن دولتهم قامت منذ القرن الثالث قبل الميلاد بمشروعات تجارية ، كان الغرض منها تحقيق السيادة على التجارة الشرقية ، وكان من هذه المشروعات تعبيد الطريق بين قنا والقصر (في مصر) وإعادة بطليموس فيلادلفوس (٢٨٥ - ٢٤٦ قبل الميلاد) ، فتح القناة التي كانت تصل نيل مصر بالبحر الأحمر.

وبذلك صارت السفن تأتي من الشرق إلى مصر ، واستطاع التجار المصريون أن يخرجوا من البحر الأحمر إلى المحيط الهندي ، وأن ينافسوا التجار العرب ، وإن كان قد حدث بينهم الكثير من التعاون [مبروك نافع ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ٧٤ ، بتصرف]

ثم خلفت حمير سبأ ، ومدت سلطانتها على قبائل العرب الشمالية إلى القرن الخامس الميلادي ، غير أنها لم تصل إلى مكانة سبأ في بسطة ملكها ، وعظم ثرائها ، لأن الحميريين فقدوا مصدر ازدهارهم عندما تحول قسم من التجارة الهندية إلى مصر. [جورجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ١٠٠ / ١ - وكذلك : كارل بروكلمان ، العرب والإمبراطورية العربية ، ص ١٤]

ثالثاً : تجارة واسعة

ولم يقتصر اليمنيون على نقل منتجات بلادهم ، بل شملت متاجرهم السلع التي كانوا يجلبونها من أفريقية وبلاد الهند ، وكانت النفائس كالعاج والعطور والأحجار الكريمة والتبر (الذهب) والأرقاء ، وغير ذلك الذي يعد أهم ما يتاجر به العرب.

وقد استعانوا زمناً طويلاً بالفينيقيين لبيع سلعهم ، لأن لغة هؤلاء وهؤلاء كانت متقاربة ، فكان الفينيقيون يخزنون سلع العرب في مدنها الكثيرة كمدينة صور (اللبنانية) ، ثم يبعثون بها إلى الخارج لبيعها ، وكان العرب والبابليون في العراق يتنافسون في الاتجار مع بلاد الهند ، كما سبق وذكرنا آنفاً [جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ١١٩ وما بعدها] وكثيراً ما تطلع اليونانيون والبطالمة ثم الرومان والبيزنطيون إلى السيطرة على طرق التجارة التي كان يهيمن عليها العرب. على أن اليونانيين آثروا أن تكون علاقاتهم ببلاد اليمن قائمة على السلم في أكثر الأحيان ، ولهذا استوطن كثير منهم بلاد اليمن.

رابعاً : أثر التجارة في رخاء اليمن

ونحن لا نشك في أن أهل اليمن أثروا من مركزهم التجاري ، ومن خصوبة أرضهم ، فعاشوا في سعة لم ينعم بها غيرهم من سكان شبه الجزيرة العربية ، ولا سيما كبارهم الذين كان لهم حظ وافر من رفاهية العيش ، والتنعم والافتتان في المأكول والمشرب ، إذ كان يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان ، ويعمل فيها السكر والقلوب (جمع قلب ، وشحمة النخلة ولبها الذي يؤكل أو الجمار) ، وتطيب أوانيها بالعطر والبخور ، ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية (الزوار والأصدقاء) ، وفي بيته العدد الصالح من الإماء ، وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهنود والأحباش ، ولهم الديارات الجليلة ، والمباني الأنيقة. [الفلقشندي ، صبح الأعشى ، ٧ / ٥ ، كذلك : ابن منظور ، لسان العرب]

هذا ، وقد ذكر المسعودي في كتابه (مروج الذهب) أن أرض سبأ اليمنية كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها ، وأكثرها جنائاً وغيطاناً ، وأفسحها مروجاً ، بين بنيان حسن ، وشجر مصفوف ، ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار متفرقة ، وكان الراكب المجد يسير نحو شهر في تلك الجنان ، لا يرى الشمس ولا يفارقه الظل ، لاستتار الأرض بالعمارة والشجر... وكان أهلها في أطيب عيش وأرقهه ، وأهنأ حال وأرغده ، وفي نهاية الخصب ، وطيب الهواء ، وصفاء الفضاء ، وتدفق المياه ، وقوة الشوكة ، واجتماع الكلمة ، فكانت بلادهم في الأرض مثلاً ... [المسعودي ، مروج الذهب ، ومعادن الجوهر ، ٢ / ١٨٠]

وذكر كثير من مؤرخي العرب نظائر لما ذكره المسعودي ، ولقد يعزز ما ذكره. وإن كان بالنسبة لسادة اليمن وأغنيائها. (أن هيرودت) اليوناني سمي اليمن قبل الميلاد بنحو أربعمائة سنة بأنها بلاد العرب السعيدة ، وقال إن بها قصوراً نضرة ذات أبواب عسجدية (ذهبية) ، وأنية من الذهب والفضة وسرواً من المعادن الثمينة.

وذكر (أراتوستين) أن بيوتهم تشبه بيوت مصر في مجموعها ، وذكر (استرابون) ما ذكره (هيرودت). أما (ديودور) الصقلي فقد وصف أهل سبأ اليمنية بأنهم أكثر العرب عدداً ، وأعظمهم ثروة ومالاً ، لأنهم يستوطنون (العربية السعيدة) ، ويتاجرون في البخور ، والعلك (اللبن) ، والطيب (الروائح والعطور) ، والمر ، والعنبر ، والكحل ، وغيرها من السلع النفيسة التي كانت تباع بأعلى الأسعار.

وذكر أن عندهم أنواعاً من الماشية ، وأن بلادهم خصبة جداً ، بل هي في رأيه: أخصب بقعة في العالم ، وهذا هو السبب في ثرائهم العظيم ، حتى أنهم يتخذون آنيتهم من الذهب والفضة ، ويصنعون قوائم أسرتهم من الذهب والفضة ، ويكسون بالذهب أبواب معابدهم وغرفهم ، ويحلون الجدران والتماثيل بالأحجار الثمينة. [جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٤ / ٤١٣ ، بتصرف]

فريشة في عالم التجارة:

أولاً : بعد ضعف حمير ..

لكن قوة حمير أخذت تضعف ، حيث نشبت فيها حروب داخلية طاحنة في القرن الثالث الميلادي ، وتمكن الأحباش من احتلال اليمن منذ نهاية القرن الثالث الميلادي إلى القرن الرابع الميلادي ، فتدهورت أحوال التجارة ، ثم تصارع الرومان والفرس على اليمن ، فزادت أحوال التجارة ضعفاً وكساداً. وفي تلك الآونة فقدت اليمن سيادتها على التجارة ، لأن الأحباش لم يتمكنوا من تدبير شؤونها وحراسة طرقها كما كان يفعل أهل سبأ ، ولأنهم آثروا طريق البحر الأحمر على طريق الحجاز.

وهنا يأتي السؤال: إلى من تنتقل مفاتيح الطرق التجارية ؟ ، أنتقل إلى الأنباط في شمالي الجزيرة العربية ؟ لا ، فقد كانت إمارتهم في حوزة الرومان منذ أن احتلها (تراجان) سنة ١٠٦ م. ويأتي السؤال بشكل آخر: هل تحول إلى الغساسنة أو إلى المناذرة للخميين ؟. لقد حال دون ذلك أن الغساسنة تابعون للروم ، والمناذرة تابعون للفرس. إذن فلم يبق إلا مكة العربية جديدة بأن تخلف بلاد اليمن في سيادتها التجارية. لقد كان لمكة سند قوي يرشحها لهذه الزعامة التجارية ، فهي في منتصف الطريق العام المسلك بين اليمن وبلاد الشام منذ عهد قديم ، وهي وسط الأسواق الكبرى التي كان العرب يقيمونها ، وهي في بقعة تنعم بماء زمزم الذي لا ينضب ولا يخلف ، وهي البلد الطيب الذي يتبوأ مكانة دينية عظيمة في نفوس العرب جميعاً.

ولم يكن اختيار النبي (صلى الله عليه وسلم) بلاد الحبشة مهجراً للمسلمين ناشئاً عن أنها تدين بدين سماوي، وبالتالي فهي لا تعتدي عليهم، أو تضطهد الإسلام لأنه دين سماوي، مثل دينهم. وهنا قد يقول قائل: لقد كانت الحيرة العراقية، وغسان الشامية، بلاداً مسيحية، كما كانت اليمن يهودية ومسيحية، فلماذا لم يلجأ إليها المسلمون؟

والرد على ذلك: لقد كان هذا الاختيار الموفق ناشئاً عن صلات تجارية وثيقة بين العرب والحبشة من ناحية، إذ كانت أرض الحبشة لقريش متجراً ووجهاً. [أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٥٠ / ٨، بتصرف] وأيضاً ناشئاً عن شيء آخر، هو أن الحبشة مسيحية مستقلة، أما الحيرة فمسيحية خاضعة لدولة الفرس المجوسية، وأما اليمن ففيها مسيحية ويهودية، لكنها خاضعة لدولة الفرس أيضاً.

وبالنسبة للغساسنة فهم مسيحيون تابعون للدولة البيزنطية حامية المسيحية، بل كان الحارس بن جبلة الملقب بالأعرج، والذي عاش بين عامي ٥٢٩ م - ٥٩٦ م، نصرانياً يعقوبياً حامياً للكنيسة. [جورجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ١ / ١٩١] ويقول التاريخ أن ابنه المنذر كان مثل أبيه، فكيف يحمي هؤلاء ديناً يغيّر دين سادتهم؟! ثم أن المناذرة والغساسنة واليمنيين كلهم عرب، وقريش التي تناوئ النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وتناصبه العداء عربية، فهم ينفسون على رجل عربي أن يسلب منهم نفوسهم كما نفست قريش.

رابعا: طرق نقل المتاجر

كان في جزيرة العرب طرق شتى لنقل المتاجر، وأهمها طريقان كبيران: أحدهما؛ يسير من حضرموت إلى البحرين على الخليج الفارسي (العربي)، ثم إلى ميناء صور اللبناني. ثانيهما؛ يسير من حضرموت إلى الشمال موازياً البحر الأحمر، متجنباً صحراء نجد اللافحة، وهضاب الشاطئ الوعرة، وعلى هذا الطريق مكة المكرمة. وما زالت هذه الطريق باقية إلى اليوم ضمن آثار الطرق البرية القديمة التي كانت تضرب في الجزيرة العربية من ناحية إلى ناحية، وبخاصة الطريق المعروف الآن بطريق الحاج (الحج) الممتد من اليمن إلى مصر والشام. [أحمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص ٩١] هذا، وقد كانت هناك عدة طرق تجارية أخرى، من أهمها:

١. من عمان إلى اليمن:

ويبدأ هذا الطريق من مسقط، وهي ثغر صالح مواجه للهند، تؤمه سلع الشرق بحراً، ثم تنقل على الإبل متجهة إلى مأرب أو معين أو ظفار أو صنعاء باليمن، متفادية الربع الخالي.

٢. من الجنوب إلى الشمال:

يبدأ هذا الطريق من موزع، وهي من أقدم ثغور اليمن، كانت على الساحل قريبة من المخا الحالية، أما الآن فقد بعد الساحل عنها، كما بعد عن دمياط ورشيد في مصر، وكانت ترد إليها تجارة شرقي إفريقية، وتنقل منها على ظهور الإبل إلى مأرب اليمنية وغيرها. فلما بعد الساحل عنها نافستها عدن منذ القرن الثاني الميلادي، وسرعان ما ازدهرت وصارت الثغر الرئيسي في الجنوب الغربي لجزيرة العرب، حتى سميت فيما بعد (المخزن الروماني)، ومن عدن كانت السلع تنتقل إلى مأرب ثم تسير إلى الشمال حيث معين ونجران، ثم إلى تبالة فالطائف، فيثرب (المدينة المنورة)، فديدان،

كما أن أهل مكة قد تهرسوا بالتجارة زمناً طويلاً، وترددوا على بلاد العالم القديم، وسلموا من الحكم الأجنبي طوال حياتهم. ولهذا، خلفت مكة اليمن، فألت التجارة إلى عرب الحجاز، واشتهروا برحلاتي الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام. وكانت مكانتهم الدينية كقيلة بسلامتهم وهم يعبرون الصحراء، آمنين على أرواحهم وأموالهم، فحق عليهم أن يعرفوا قدر هذه النعمة، ويشكروا الله عليها، فيعبده وحده لا شريك له. قال سبحانه وتعالى في محكم آياته: {إيلاف قريش، إيلافهم، رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف.} [سورة قريش]. أي لا لف قريش رحلة الشتاء والصيف، لأن إيلاف مصدر ألفه يؤلفه، بمعنى ألفه يألفه، أي لزمه وأنس به، ورحلة الشتاء والصيف هما رحلتان تجاريتان كانت قريش ترحلها للتجارة، وطلب المعاش في الشام واليمن، كما ذكرنا. والمعنى العام للسورة: لتعود قريش رحلة الشتاء والصيف إلى اليمن والشام، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي رزقهم، ولم يبلهم بالجوع، كما أنه طمأن قلوبهم من أثر الخوف. [محمد فريد وجدي، المصحف المفسر، ص ٨٢٢]

ثانياً: معاهدات تجارية

وقد عقدت مكة معاهدات تجارية مع الأمم المجاورة، إذ عقد بنو عبد مناف معاهدات لقريش، فعقد هاشم بن عبد مناف عهداً مع ملوك الشام من روم وعرب. وعاهد عبد شمس الملك النجاشي الأكبر ليتردد العرب على أرض الحبشة، ويتاجروا مع أهلها في سهولة ويسر. واتفق نوفل مع ملك الفرس فتردد العرب على العراق وفارس للمعاملات التجارية مع سكانها. وأخذ المطلب عهداً على ملوك حمير اليمنيين، فوفد عرب الحجاز على اليمن، فحجر الله بهم قريشاً، وأصلح أحوالها، وأفاء عليها كثيراً من الخيرات، فسمي هؤلاء المجبرين. [الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢ / ١٨٠. كذلك: الميداني، مجمع الأمثال، ٢ / ٦٦، وأيضاً: أبو علي القالي، النوادر، ص ١٩٩] على أن العرب كانوا منذ قديم الزمن يقدمون على الفرس بمتاجرهم وسلعهم، ويمتازون بما عندهم من: الحب، والتمر، والثياب، وغيرها من السلع. [الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ١ / ٢٩١] وكانوا إذا أجذبوا قصدوا العراق وفارس، فيشترون التمر والشعير، ويعودون إلى بلادهم، خوفاً من الدلة في سلطان دولة أعجمية. [ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢ / ٢٢٨]

ثالثاً: لماذا كانت الهجرة إلى الحبشة؟

وإذا رجعنا إلى بزوغ الدعوة الإسلامية الغراء وجدنا المشركين يضطهدون المسلمين اضطهاداً عنيفاً، يلجئ مئات منهم إلى الفرار بدينهم وحياتهم. فإلى أين فروا أول الأمر؟ فروا إلى بلاد الحبشة!، ومنهم من هاجر بأهله كعثمان بن عفان، وأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة.

وبعثت قريش في إثرهم مندوبين، هما: عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، ليزينا للنجاشي ملك الحبشة، ألا يبقى في مملكته هؤلاء الوافدين، وقد أرسلت قريش معها هدايا للنجاشي وبطارقته، وتجاوز مندوبا قريش والمسلمون في مجلس النجاشي، ولكن المسلمين انتصروا بالحكمة والعقل والموعظة الحسنة، وطابا لهم المقام في بلاد الحبشة مدة الزمان [ابن هشام، السيرة النبوية، ١ / ٢٤٤. ٢٦١]

ليستقل الواحات الكثيرة بواديان طويق الجافة ، ومنها إلى وادي الرمة قرب عنيزة ، ثم إلى الرس. وبعد ذلك يقصد إلى جبل شهر الكثير العيون ، ثم يسير على الحافة الجنوبية لصحراء النفود الكبيرة إلى أن يبلغ واحة تيماء حيث يتصل بالطريق الكبير الممتد بين مأرب وبطرا.

٥. من العراق إلى الشام:

كان هناك طريق قديم يصل بين العراق وبلاد الشام ، والدليل على ذلك كثرة الخرائب المنثورة به ، وأهمها خرائب تدمر المعروفة لدى علماء الآثار. [محمد أحمد حسونة ، الجغرافيا التاريخية الإسلامية ، ص ١٢ ، وما بعدها]

خامساً: العرب ونشاط تجاري فريد

لقد اقتضت سياسة الروم أن تحدد أسواقاً خاصة للقوافل العربية الكثيرة التي كانت تقصد بلاد الشام ، لتجني منها الضرائب ، ولتراقب الوافدين على مناطق نفوذها من الأجانب.

فمثلاً: كانت تنزل هذه القوافل في أيلة (العقبة الأردنية الآن) ، ومنها إلى غزة الفلسطينية حيث تتصل بتجار البحر الأبيض المتوسط ، ومن غزة يشخص بعضها إلى مصر وبصرى. ولسنا نبعد عن الصواب إذا تخيلنا هذه القوافل كبيرة وكثيرة العدد ، فقد رآها المؤرخ (استرابون) ، وشبه القافلة منها بالجيش الجرار.

وتحدث (ديودور) الصقلي ، وكذلك (استرابون) وغيرهما عن تجارة العرب ، وشهرة بعض مدنها بها ، وتجمع القوافل التجارية بهذه المدن حاملة المتاجر من إفريقية والهند واليمن والحجاز والشام والعراق ، وتصديرها إلى أسواق العالم بطريق البر أو عن طريق البحر الأحمر ومصر. [جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٤١٦ / ٢ ، وما بعدها]

ويذكر لنا المؤرخ / الواقدي: أنه رأى قافلة تجارية بلغت خمسمائة بعير وألفاً. [الواقدي ، المغازي ، ص ٢٠] وذكر المؤرخ / الطبري: أن غير قریش بلغت خمسمائة بعير ، وألفين ومائة رجل. [الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ٢ / ٢٦١ ، بتصرف] وأن غير قریش يوم غزوة بدر الكبرى كانت كبيرة جداً. [الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ٢ / ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥]

سادساً: حماية التجارة

كان الفرس يبعثون متاجرهم إلى سوق المشقر ، وغيره من الأسواق العربية الكثيرة ، والتي كانت تموج ليل نهار بالحركة والنشاط. [ابن حبيب ، المحبر ، ص ٢٦٣] وكان يجتمع في (دبا) على خليج عمان ، تجار من المشرق جاءوا من: الهند والصين والسند ، ومن المغرب ، فيشترون متاجر العرب ، ثم يسرون إلى شجر مهرة ويبيعونه الأدم والبز وسائر المرافق ، ويشتررون منهم الكندر والمر والصبر والدخن. [أبو علي المرزوقي الأصفهاني ، الأزمنة والأمكنة ، ورقة ١٢]

وإذا كان الفرس يرسلون قوافلهم التجارية إلى أعماق الجزيرة العربية ، ولا يستطيعون حمايتها ، فقد استعانوا بعرب الحيرة على خفارة هذه القوافل ، ولأسمها المتجهة إلى سوق عكاظ الشهير ، لقاء مبلغ من المال يقدمونه لأشراف القبائل الذين يحمون القوافل من العدوان.

وكثيراً ما كان هؤلاء الأشراف يردون المال إن اعتدى أحد على القافلة ، وعجزوا عن حمايتها. ولقد يجز الاعتداء على القافلة المحمية حرباً ، كما حدث في يوم السلان ، إذ قامت حرب بين النعمان الثالث - أبي قابوس - ابن المنذر الرابع (٥٨٥ م - ٦١٣ م) ، وبين عامر بن

فالحجر (مدائن نبي الله صالح عليه السلام) ، فواحة تيماء ، فبطرا: وهي مدينة كانت في طريق اللقاء من ناحية الحجاز.

ويقول التاريخ: إن بطرا كانت محط القوافل حينما كانت التجارة في الشمال بأيدي الفينيقيين والنبط من بعدهم ، فلما استولى الرومان على بطرا سنة ١٠٦ م ، تحولت المتاجر إلى معان على طريق الحج ، ومن بطرا أو معان كانت بعض القوافل التجارية تتجه إلى غزة الفلسطينية ومصر. [أحمد الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ص ٩٨. ٩٩]

وأكثر هذه القوافل كانت تتجه إلى بصرى ، فدمشق ، فتدمر ، ثم يحازي نهر الفرات دائراً معه إلى بابل أو الحيرة ، وقد أيدت أعمال الحفر الحديثة التي قام بها علماء الآثار في اليمن والحجاز ، أن هذا الشريان التجاري يطابق بوجه عام درب الحاج.

٣. من مأرب إلى جرة:

جرة مدينة يرجح أنها أسست في القرن الرابع قبل الميلاد ، وربما كان الكلدانيون هم الذين أسسوها بعد أن نفاهم الفرس من بابل العراقية. وكان كتاب القرن الثاني قبل الميلاد يقارنهم بأهل سبأ اليمنية في الثروة والنشاط التجاري. وجرة من الأماكن التجارية الممتازة الموقَّعة لأنها تواجه بلاد الهند ، وتقع داخل خليج البحرين ، بمأمن من الأمواج التي قد تكون عاتية في بعض الأحيان. وهي قريبة من الواحات التي تعد مفتاحاً لقلب الجزيرة العربية ، والمرجح لنا أن موقعها كان قريباً من العقير الحالي.

وأغلب الظن أنه كان يمتد (أي هذا الطريق التجاري) على خط الواحات بوادي نجران ، فوادي الدواسر ، فوادي السليين ، ثم على امتداد الأبار المنبثة في الأفلاج والحرث. ثم ينفذ الطريق إلى اليمامة ، وكانت في العهود السابقة كثيرة الماء والنبات ، وعلى هذا الطريق يسير تجار اليمن ، ونجد إلى يومنا هذا ، مع اختلاف وسائل النقل بالطبع.

ومن اليمامة إلى جرة كان الطريق أسهل ، لأنه بعد أن يعبر نطاقاً ضيقاً من النفود والدهناء ينتهي إلى واحات الحساذات ، حيث الحقول الغنية والماء الغزير ، ثم يصل إلى الخليج حيث كانت جرة ، وهذا الجزء من الطريق أقصر الطرق وأسهلها بين نجد والخليج ، وهو قديم به دوائر حجرية ، وبقايا قنوات قديمة للماء مبنية بالحجر.

ويرجح أن أهل فينيقيا هم الذين أنشأوا هذه الآثار ، لحاجتهم إلى التوغل في قلب جزيرة العرب ، فقد كانت لهم مستعمرات على الخليج العربي تتفق أسماؤها وأسماء مستعمراتهم على ساحل البحر الأبيض المتوسط. [محمد أحمد حسونة ، الجغرافيا التاريخية الإسلامية ، ص ١٢ وما بعدها]

٤. من جرة إلى بطرا:

كان هذا الطريق عظيم الأهمية أيام الإسكندر الأكبر (٣٣٦ - ٣٢٣ ق م) ، وبقي كذلك إلى عصر البطالمة الأول (٣٢٣ - ١٤٥ ق م) ، وكانت ترد إليه السلع الهندية المرسلة إلى مصر وسواحل البحر الأبيض المتوسط ، وبعض السلع كانت ترسل في قوارب صغار إلى خليج فارس (الخليج العربي) ثم تحمل في نهر الفرات ، وبعد ذلك ترسل إلى بلاد الشام براً عن طريق تدمر.

أما القوافل المتجهة من جرة إلى الغرب ، فقد كانت تسلك اتجاهها إلى الإحساء ، ثم تعبر الدهناء والنفود في أضيق نطاق منها إلى اليمامة ، ومن اليمامة لم يكن بد من السير في وادي حنيقة الشهير الذي به الرياض والدرعية. ثم يسير إلى سدوس ، ثم يتجه شمالاً

- أحمد محمد الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٣ م.
- الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق: عبد السلام هارون ، القاهرة.
- جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، القاهرة.
- جورج زيدان ، العرب قبل الإسلام ، دار الهلال ، القاهرة.
- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة: عادل زعيتير ، طبعة ثانية ، بيروت.
- حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسي ، القاهرة ، ١٩٧٠ م.
- رينولد . أ. نيكلسون ، تاريخ الأدب العربي ، لندن ، ١٩٠١ م.
- الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، طبعة بيروتية.
- القلقشندي ، صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة.
- كارل بروكلمان ، العرب والإمبراطورية العربية ، ترجمة: نبیه أمين فارس ، ومنير البعلبكي ، بيروت.
- مبروك نافع ، عصر ما قبل الإسلام ، القاهرة.
- محمد أحم حسونة ، الجغرافيا التاريخية الإسلامية ، القاهرة.
- محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، المطبعة الحسينية ، القاهرة.
- محمد فريد وجدي ، المصحف المفسر ، طبعة دار الشعب ، القاهرة.
- المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، طبعة بولاق المصرية ، القاهرة ، ١٢٨٣ هـ.
- الميداني ، مجمع الأمثال ، المطبعة البهية المصرية ، القاهرة.
- الواقي ، المغازي ، القاهرة.
- يسري عبد الغني عبد الله ، مجموعة أبحاث: قيم حضارية من الشعر الجاهلي ، ١٩٩٠ م - اتصال العرب باليهودية قبل الإسلام ، ٢٠٠٠ - حياة العرب الدينية قبل الإسلام ، ٢٠٠٢ - العرب والنصرانية قبل الإسلام ، ٢٠٠٤ .



الأستاذ يسري عبد الفني في سطور:

- كاتب وباحث مصري من مواليد سنة ١٩٥٢.
- ليسانس لغة عربية ودراسات إسلامية / كلية دار العلوم / جامعة القاهرة / ١٩٧٥.
- دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - جامعة عين شمس / ١٩٧٧.
- دبلوم الدراسات الإسلامية ، المعهد العالي للدراسات الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨١.
- دبلوم عام في الدفاع الاجتماعي والإرشاد النفسي (من منظور إسلامي) - معهد الدراسات العليا للدفاع الاجتماعي - جامعة القاهرة - ١٩٩٩.
- دبلوم خاص في الدراسات الاجتماعية (ماجستير) - معهد الدراسات العليا للدفاع الاجتماعي - جامعة القاهرة - ٢٠٠١.

صعصعة ، لأن العامرين اعتدوا على قافلة كسرى إبرويز الفارسي والمتجهة إلى عكاظ ، فغضب النعمان ، واستنفر أخاه لأمه ، وبرة الكلبي ، وجمع بني تميم ن والتقى الجيشان بالسلان ، واقتتلا قتالاً شديداً إنجلي عن انتصار بني عامر على جيش النعمان. [ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ١ / ٢٣٤]

سابعاً: مكانة مكة التجارية

صارت مكة تعج بالتجار من كل ناحية ، وصارت تهيمن على المتاجر المترددة بين الجنوب والشمال عن طريقها ، وتتقاضى عليها ضرائب أو رسوم عبور ، فلم يجدوا من وقتهم ما يمكنهم من الاشتراك في أعمال الشرطة أو الجيش ، فاستأجروا جنوداً من أفريقيا ، ومن الحبشة ليقوموا بعمليات الحراسة.

ولا غرابة في قول (الواقدي) و (لامانس) إن بعض الدول كبنزلة وفارس كان لها ممثلون تجاريون في مكة نفسها. [مبروك نافع ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٧١ ، وما بعدها] وكان القرشيون يفتخرون باتساع يفتخرون باتساع متاجرهم ، لأنها دليل على ثرائهم ، فمثلاً سهل بن عمرو - الذي أسر يوم بدر ، ورفض النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، أن ينزع ثنيتيه ، ثم أسلم فيما بعد ، وحسن إسلامه - سكن الناس يوم قبض النبي (صلى الله عليه وسلم) ، بقوله: إني أكثركم قتباً في بر ، وجارية في بحر. [الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق / عبد السلام هارون ، ١ / ٢٥٣]

بندقية بلاد العرب:

هذا ، وقد اعتمد الروم على تجارة مكة العربية في حاجاتهم ، حتى فيما يترفعون به كالحرير. ويذكر بعض مؤرخي الغرب أنه كان في مكة بيوت تجارية رومانية تزاوّل الشئون التجارية للروم ، كما كان فيها حبش يربعون مصالح قومهم التجارية. [أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ١٥]

ولذلك سهاها بعض المستشرقين (بندقية بلاد العرب) ، وكذلك صارت مركزاً للصيرفة ، يمكن أن يدفع فيها التجار أثمان السلع التي ترسل إلى بلاد بعيدة. كما كانت أعمال الشحن والتفريغ للمتاجر الدولية تتم فيها ، كذلك كان يتم التأمين على المتاجر وهي تجتاز الطرق المحفوفة بالمخاطر. [أ. نكلسون ، تاريخ الأدب العربي ، المقدمة]

ولا يفوتنا ونحن نختم هذا البحث أن نشير إلى صلات العرب الوثيقة ببلاد الهند ، حيث كان لهذا الاتصال ثمراته في اللغة والأدب ، وفي غير اللغة والأدب.

الأسانيد والمراجع

- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة ليدن ، هولندا.
- ابن حبيب ، المحبر ، طبعة بيروتية.
- ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة.
- ابن هشام ، السيرة النبوية ، طبعة المكتبة الأزهرية ، القاهرة.
- أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة ساس ودار الكتب المصرية ، القاهرة.
- أبو علي المروزقي الأصفهاني ، الأزمنة والأمكنة ، مخطوطة بدار الكتب المصرية.